رسالة محمد بن عثمان الامباركي إلى إيفلان باغنة.. وثيقة تنشر لأول مرة (الحلقة 2)

سيدي أحمد ولد الأمير
إعلامي وباحث موريتاني

توطئة:

تناولت في مقال سابق، عرضا وشرحا وتقديما، وثيقة تاريخية من وثائق إمارة المجد وسلطنة الإباء أي إمارة أولاد امبارك، وهي وثيقة هامة بعثت بها قبيلة أولاد الغويزي إلى بني عمومتهم أبناء امحمد الزناگي، وتوجد بهذه الوثيقة معلومات مفيدة عن معركة صفية انيوكشه الشديدة والتي كان من نتاجها على أولاد امبارك، حسب هذه الوثيقةا لنادرة، فقدان التنسيق بين المجموعات المكونة لهذه القبيلة المغفرية الكبيرة، كما توجد بها دعوة إلى لم شمل قبيلة أولاد امبارك ودعوة كبرائها إلى تجاوز الخلافات والسعي لترتيب البيت الداخلي الامباركي، ومصدر الوثيقة هو مجموعة من الوثائق في مكتبة أهل احماه الله بتيشيت.

وفي هذه المقالة الثانية سأتناول وثيقة تؤرخ لجانب من صراع أولاد امبارك والحاج عمر الفوتي، التي تحدثت عنها المراجع المحلية وخصوصا حوليات منطقة الحوض، وقد عثرت على هذه الوثيقة في مخطوطات مكتبة الحاج عمر المحفوظة بباريس.

بين يدي الوثيقة

هذه الوثيقة عبارة عن رسالة من زعيم أولاد امبارك محمد بن عثمان بن بوسيف إلى قائد مجموعة إيفلان باغنة: محمد بن الحاج إبراهيم البواري الفلاني. وفي هذه الرسالة يحاول الزعيم الامباركي محمد بن عثمان استمالة هذا القائد الفلاني ذي التأثير القوي بمنطقة باغنة لكي يدخل -كما كان آباؤه يفعلون مع سلاطين أولاد امبارك- مع أهل بهدل في حلف عسكري ضد الحاج عمر الفوتي وحركته المتنامية في منطقة الساحل الإفريقي.

والصراع الامباركي الفوتي على منطقة باغنة من حلقات التوتر والعنف الشديدة التي عرفتها إمارة أولاد امبارك والتي آلت إلى تحويل ميزان القوى لصالح الحاج عمر وجيوشه وحلفائه في المنطقة على حساب سلطنة أهل بهدل، بل وعلى حساب عموم المجموعة الامباركية.

وسنورد هذه الرسالة المفيدة، لنعلق بعد ذلك عليها: مبينين سياقها التاريخي وأهميتها ضمن تاريخ إمارة أولاد امبارك وخصوصا فرع أهل بهدل بن امحمد الزناكي سلاطين أولاد امبارك وما ذا تضيف هذه الرسالة بالنسبة لتاريخ الامارات الموريتانية. ومصدر الوثيقة مخطوطات المكتبة العمرية المودعة في جناح خاص بالمكتبة الوطنية بباريس.

نص الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده.
هذا وإنه من محمد بن عثمان بن بوسيف إلى محمد بن الحاج إبراهيم خاصة بالسلام التام والإكرام العام.
أما بعد الإعلام بأني دخلت هذا الحرب من جهة أولاد أعمر بن هنون لأني كبيرُهم اليوم، والملك ملكهم، كما أنت تعلم ذلك. وأنت دخلت فيه من جهة قومك ولا لوم عليك في ذلك، ولا نقَصَك ذلك عندي إلى الآن. فاليوم إن كان الأمر الذي بِنْتَ فيه جهادا أقدم إليَّ بنفسك إن تيسر لك ذلك، أو من يساويك إن لم يتيسر يحصل لك مرادك، ولا نفعل معك إلا ما يرضيك وتحبه. وإن كنت تنقم عليَّ دخولي في "دني" عام مجيء الجهاد فوالله ما فعلت ذلك مرتدا ولا كرها للدين، بل عجزا وخوفا من شماتة الأعداء.
وإن كنت تريد بذلك مطلق إصلاح باغنة فمرتبتك ومرتبة أبيك ظاهرٌ، وإني إن لم أزد ذلك لم أنقصه أبدا.
وأعلم بأن أباك وعد عثمان بن بوسيف بهذا الملك وأخبره بذلك أنه رآه له بشهادة الثقاة، والولد بمنزلة الوالد من جهتك ومن جهتي أنا.
وأنا الكاتب نشهد على إقرار الفاضل بن ألفا محمد سن بذلك في بقعة من بقاع باغنة تسمى كوش بصدر بيته في ملأ من المسلمين. وقال لعله رأى ذلك لابنه.
والحاصل أن بوَّار وأهل سنبور وأهل السماء وأهل الأرض كلهم سواء عندي، وأنت عجل عملك تجدني منك وتنال ما تريد من الأمن والفعل بعد ذلك. والسلام كما بدأ."
انتهت الرسالة.

تعليق على الرسالة:

من مرسِل الرسالة؟

من الواضح أن هذه الرسالة كتبت بدايات سنة 1855 حيث نعلم أن بداية هذه السنة عرفت تحرك جيوش الحاج عمر الفوتي نحو منطقة باغنة ودخول هذه الجيوش في صراع مع أولاد امبارك الذين كانوا يسيطرون على هذه المنطقة وغيرها.
أما بالنسبة لمرسلها فإن المؤرخ النسابة الذي يعتبر مرجعا أساسيا في أنساب بني حسان القاضي صالح ولد عبد الوهاب الناصري لم يذكر محمد بن عثمان بن بوسيف في كتابه الحسوة البيسانية في معرفة الأنساب الحسانية، ولم تذكره كذلك حوليات ولاته ولا حوليات النعمة التي ذكرت الكثير من أعيان وأعلام أولاد امبارك وتابعت بدقة الحوادث التي عرفتها هذه الإمارة. ومع ذلك يبقى محمد بن عثمان بن بوسيف هذا زعيما امباركيا شهما وقائدا عسكريا قويا، ويبدو كذلك أنه قام

بأعباء إمارة أولاد امبارك في فترة حرجة جدا من تاريخها أي منتصف خمسينيات القرن التاسع عشر.
وقد حاولت استنطاق العديد من النصوص المتعلقة بأنساب أولاد امبارك، وحاورت أخي الباحث المتخصص في أولاد امبارك وتاريخهم وأنسابهم أخي يوسف نجاح العبيدي، وكان رأيي أن صاحب هذه الرسالة هو: **محمد بن عثمان بن بوسيف الكبش بن أعمر بن هنون بن بهدل**. ولم وقع الرسالة باسم: محمد بن عثمان بن بوسيف، دون ذكر اللقب "الكبش"، ومعلوم أن هذه الألقاب كثيرة في أولاد امبارك بل في سائر المغافرة بل وبني حسان جميعهم. فلدينا في أولاد امبارك: وعثمان الزائغ بن هنون النفاع بن بهد بن أعمر الشماته بن امحمد ازنَاگي، فهنا لقب "الزائغ" ولقب "النفاع"، ولقب "الشماته" وكلها جاءت مع الاسم. وهذا كثير لن نطيل فيه هنا.
ويرى الباحث يوسف نجاح أن صاحب الرسالة ليس من أهل هنون بن بهدل بل ربما كان من أهل بوسيف بن أحمد (أولاد عيشه)، لعدم وجود تسمية بوسيف في أهل بهدل غالبا، وكثرتها وتواترها في أهل أحمد بن هنون العبيدي، اللهم إلا بوسيف الكبش. كما أن الصراع الامباركي الفوتي كان في الأساس بين جيوش الحاج عمر وبين فاته ورئيسها سيدي أحمد بن المختار (أهل الكاشوش)، وأنصارهم وحلفائهم وهم في الغالب أولاد عيشه.
وفي ظني أن صاحب الرسالة من أهل بهدل وليس من أهل بوسيف بن أحمد للأسباب التالية:
ذكر صاحب الرسالة أسرة أهل أعمر بن هنون مرارا في رسالته، ذكر أنه هو من يتولى شأنهم وأمرهم العام، كما أورد ذكر باغنة ثلاث مرات، ومعلوم أن باغنة منطقة تعد مجال أهل هنون بن بهدل، سلاطين أولاد امبارك، ومحل إقامتهم،وبها عاصمتهم بالنعوم التي زارهم الرحالة الأسكتلندي مونغو بارك عندها في نهاية القرن الثامن عشر.
ومما يشهد لذلك قول ابن انبوجة في قصيدة يغلب على الظن حسب الدكتور جمال بن الحسن محقق كتاب ضالة الأديب لسيدي عبد الله بن انبوجة أنه أنشأها قريبا من سنة 1270هـ/1853-4م:

لكن متى ظهرتْ أعلام باغنةٍ دخلت ملك بني عمرو بن هنون

صاحب الرسالة -حسب رأيي- إذن أحد أعيان أهل هنون بن بهدل سلاطين أولاد امبارك، وكثيرا ما دخلت أسرته في صراع على السلطة مع السلاطين أبناء وأحفاد أعمر بن هنون بن بهدل الذين استقر الملك فيهم، لكن ذلك لم يمنح هنون الكبش وابنه اعلي الشيخ وأحفاده من المطالبة بالعرش.
يقول صالح بن عبد الوهاب في الحسوة عند ذكر أهل بوسف الكبش: ومن بوسيف الكبش ابنه عثمان بن بوسيف الكبش قتله مشظوف، ومنه ابنه: بابُّون بن

عثمان بن بوسيف الكبش ولي الملك في مديدة ونازعه فيه أعمر بن سيد أحمدْ بن اعلي الشيخ ولم يتم أمرهما ولا عقب للقصاص ولا لأوديكه".
وقد اجتاحت حركة الحاج عمر الفوتي تلك المناطق واحتكت بأولاد امبارك والحال أنه قد مر عقد من الزمن على مصرح المختار (خطري) ابن أعمر بن اعلي آخر سلاطين أهل أعمر بن اعلي المقتول سنة 1841م.
والواقع أن أسرة أهل بوسيف الكبش كانت تعرضت لملاحقات من طرف سلطان أهل بهدل: امحمد آماش بن أعمر بن اعلي بن أعمر بن هنون الذي تقول الرواية الشعبية إنه جمح به فرس فلم يوقف له على أثر ولم يعرف له قبر وذلك سنة 1820م. فقد كانت أسرة أهل بوسيف الكبش تشكل تهديدا على السلطنة فخاف منهم امحمد آماش على ملكه فنفاهم إلى مملكة ماصَه البمبارية الواقعة بإقليم كرطه غرب منطقة باغنة. ويبدو لي أن صاحب الوثيقة كان من تلك الأسرة التي استوطنت بلاد كرطه زمنا حتى غزت جيوش الحاج عمر منطقة باغنة.
ولا شك أن رجالات إمارة أولاد امبارك قد أحسوا منذ بداية حركة الحاج عمر الفوتي الجهادية سنة 1851، أن هذا الوافد الفوتي الجديد يشكل خطرا على وجودهم بمنطقة باغنة بل وبالحوض أيضا، وبدأوا يعدون العدة لهذا الأمر، وأنهم جربوا إحياء بعض التحالفات مع بعض المجموعات الإفريقية بالمنطقة، والتي من شأن إحيائها الوقوف في وجه الحركة الفوتية التي اجتاحت أجزاء من السنغال وموريتانيا كما اجتاحت أغلب الأراضي المالية في تلك الحقبة.

من المرسَل إليه؟

المرسل إليه هو محمد بن الحاج إبراهيم بن ألفغ كداد الفلاني، ومن العلوم أن هنالك قبيلتيْن من مجموعة إيفلان كانتا تعيشان في منطقة باغنة وتتعايشان مع قبائل مصاصي البمبارية تحت ظل إمارة أولاد امبارك وهما: قبيلة أوَّارْبِي المشهورة باسم بوارْ وقبيلة وَارَّالْبِي المشهورة بسَمبورو. وكان في أسرة أهل كداداو زعامة قبيلة بوار أو أوَّارْبِي الدينية والزمنية، وكانت مرابع هذه القبيلة في منطقة فوتا طورو على ضفة نهر السنغال قبل تدخل في صراع أدى إلى ارتحالها إلى منطقة باغنة في القرن السابع عشر حيث جاوروا هناك قبيلة وَارَّالْبِي الفلانية، وتذكر الرواية أن قائد قبيلة أوَّارْبِي حينها اسمه باغي با. وما لبث أولاد امبارك أن وضعوا أيديهم على منطقة باغنة أواسط القرن السابع عشر، وقد ذكر الرحالة الألماني هانريش بارت رواية مفادها أن المولى إسماعيل العلوي قد ولى هنونْ بن بهْدل على باغنة 1083هـ/1672م، ولعل الأمر يتعلق بأبيه بهْدل بن امحمد الزناگي. وفي بداية القرن التاسع عشر سيظهر في وسط هذه القبيلة ألفا كدادو أو الفقيه كدادو وابنه الحاج إبراهيم.
وقد دخلت القبيلتان الفلانيتان المتجاورتان قبيلة بوار أو أوَّارْبِي وقبيلة سنبورو أو وَارَّالْبِي في صراع دام، وقد وقف أولاد امباك بقيادة سيدي بن المختار زعيم فاته

انغلي إلى جانب قبيلة سنبورو أو وَارَّالْبِي ضد بوار فقتل زعيم بوار محمد بن الحاج إبراهيم بن ألفغ كدادو سنة 1268هـ أي 1852 عند چِگنه (Diguigna) كما في الحسوة البيسانية. وعندها تم إجلاء قبيلة بوار من منطقة باغنة نحو ديورا (كاريري) في الحدود الجنوبية لمنطقة ماسينا بمالي.
يقول صالح بن عبد الوهاب أن وقعة چِگنه كانت وأنها على إفلان قتل أميرهم محمد بن الحاج إبراهيم بن ألفغ گدَاد البواري ومن لا يحصى كثرة وذلك في سنة "حصرش" أي 1268 ومعها بهم المختار الصغير بن سيدي أحمد بن المختار بن سيدي أحمد رئيس فاته انغلي يومئذ بل رئيس أولاد امبارك قائما في إحياء دولة أهل بهدل في باغنة باعلي بن المختار بن أعمر بن اعلي بن أعمر وقاتل له بعض البنابره وإفلان قتالا شديدا حتى فتح له هو وأهل سيگو من البنابرة وأهل آسكر مدينة چگنة وقتلوا أميرها المذكور.

سلطنة أولاد امبارك ومنطقة باغنة

ورد ذكر باغنة مرارا في هذه الرسالة ومن أسباب ذلك أن المرسَل إليه محمد بن الحاج إبراهيم البواري الفلاني من كبار رجالات تلك المنطقة وأسرته من أبرز أسرها. ومن المعلوم أن باغنة منطقة جغرافية في جمهورية مالي الحالية وتعرف بالآن باسم وغادو، وهي محاذية للحدود الموريتانية، وبها العديد من الأماكن، وتتميز بثرواتها المعدنية والحيوانية وبموقعها الجيد في شبكة العلاقات التجارية. وسكانها في القديم خليط من الناس وغالبيتهم إما إفلان وخاصة قبيلة بوَّارْ وقبيلة سنبورُو وهم مسلمون، وبمبارة وخاصة المصاصي الوثنيون. وقد بسط عليها أولاد امبارك وخاصة أهل بهْدل نفوذا قويا منذ أواخر القرن 11 الهجري أي نهاية ال 17م. وقد ذكر الرحالة الألماني هانريش بارت رواية مفادها أن المولى إسماعيل العلوي قد ولى هنونْ بن بهْدل على باغنة 1083هـ/1672م، ولعل الأمر يتعلق بأبيه بهْدل بن امحمد الزناگي. كما تحدث الرحالة الإنجليزي مونگو بارك في كتابه: "رحلة داخل إفريقيا" عن سلطنة أولاد امبارك بباغنة وسماها في كتابه: "مملكة ولد أعمرْ" حيث مكث معهم زمنا عند بئر بالنعوم أيام إمارة اعلي بن أعمر بن هنونْ بن بهْدل. وقد استمرت سيطرة أهل أعمر بن هنونْ بن بهْدل على باغنة وسكانها من بمبارة وخاصة المصاصي الوثنيين، إلى عهد آخر سلاطينهم المختار الملقب خطري بن أعمر بن اعلي المتوفى سنة 1257هـ/1841م وفيه يقول محمد فال بن بابه العلوي في كتابه التكملة: "يقال إنه تأتيه الإماء من باغنة تحمل أطباق الذهب". ويصور ذلك قول الظباح بن سيدي أحمد بن آوليل يمدحه في تهيدينة الصولة:

والكوري الكبيرْ المكريهْ ... الي فم مصبوغ أخظر
وتارك طاعة ربه وانبيهْ ... وُناف في الحشرْ والقدرْ
إيجي للمختارْ إساسيهْ ... وعن تكبرته ما يتكبرْ
ولا عكر وقت إززميهْ ... إلين إطيب اعل لعكر

وعندما فتح الحاج عمر الفوتي بلاد كرطة واشرأب إلى باغنة نازعه إياها أولاد امبارك من جهة وأحمد بن أحمدو بن أحمد لبو (أحمدو الثالث) الفلاني ملك ماسنة من جهة أخرى، فانتزعها من الجميع وكان ذلك سبب صراعه المباشر مع أولاد امبارك مما أدى إلى إيقاع جيش الحاج عمر بأولاد امبارك ومن معهم سنة 1274هـ/1857-8م. قال ابن بابه في التكملة: "ثم إن أولاد امبارك لما فتح الحاج عمر بمباره أعانوا أهل مغرمهم فحطمهم واستأصل شأفتهم".

وقد تحدث سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن انبوجه العلوي في نظمه لحركة الحاج عمر وحروبه واحتكاكه بأولاد امبارك حين يقول:

وبعدُ وجَّهَ الهمامَ ألفَا ... لأرض باغَنَةَ معْهُ الفَا
وأرضُ باغنةَ إذ ذاك على ... غاية دَوْلةٍ وفي انتِهَا العُلاَ
عامرةُ النواحي والأرجاءِ ... موتية الأكل لكل جاءِ
إلا إذا جاء إليهمُ فهمْ ... أعداؤهُ والجهلُ قد أتلفهُمْ
فسارَ كيْ ينقِذَ من سنبُورُ ... من كانَ في دينيَّ لا يحورُ
عنهم وإذ أتى سريرَ راسلاَ ... ولْ أعمرْ ولْ اعْلِ وقد تكاسلا
وزعموا أن البلادَ لهمُ ... وهكذا قال اعْلِ ذا قبلهمُ
وأظهروا من قوة العنادِ ... ما لم يَمِلْ لله باستنادِ
فرحلوا كلا إلى جنگَوْدِ ... فقطنوا وربهم ذو جوْد
فاجتمع الكفار من صبيدِ ... وراسلوا العربان من بعيد
وعلم الفاهمُ من بعيدِ ... ذلك ما قال بنو صبيد
وأرسلوا للشيخ والنهيَ كتبْ ... وأن أسهل المُضرين ارتكب
فهدموه عن قريبٍ واستوى ... على ذويه من صبيد اللوى
وقتلوهم جميعا وهم ... عددهم لم يحصه توهم

خاتمة:

هنالك حلقات مفيدة في تطور ومسار إمارة أولاد امبارك ذلك المسار الذي أدى إلى تلاشي قوة هذه الإمارة، أولى تلك الحلقات معركة الصفية صفية انيوكشَه وهو موضع بتامورة انعاجْ بتگانت والتي كانت يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب 1221هـ الموافق 5 أكتوبر 1806م وما نتج عنها من ضعف العصبية الامباركية كما تبين ذلك رسالة أولاد الغويزي إلى سائر أولاد امبارك والتي نشرنا سابقا.

أما الحلقة الثانية فكانت بعد عقد على معركة الصفية حين وقعت معركة وسط (موضع بالرگ بالحوض) كانت سنة 1233هـ/1817م وكانت وسط بين طرفي أهل هنونْ العبيْدِي: أولاد العالية وأولاد عيشة وقرر سائر أولاد امبارك اعتزال الحرب غير أن امحمد آماش بن أعمر بن اعلي سلطان أهل بهْدل أعان أخواله أولاد العالية فجر ذلك إلى الانقسام الشامل لأولاد امبارك.

والحلقة الثالثة هي معركة مد الله وهي أضاة وتسمى بالحسانية "تَامُورْتْ"، وتامورتْ مد الله تقع شرقي مدينة العيون بالحوض الغربي، وكانت 1257هـ/1841-2م. وهي معركة حاسمة بين طرفين من أولاد امبارك يتألف الأول من فونْتِي بقيادة أهل بهْدل ومعهم أولاد العالية من أهل هنونْ العبيْدِي بحكم الروابط الدموية (فأولاد العالية أخوال امحمد آماش واعلي والمختار "خطري" أبناء أعمر بن اعلي بن أعمرْ)، ويتألف الطرف الثاني من أولاد عيشة (وهم أخوال هنونْ بن أعمر بن اعلي بن أعمرْ) وفاته انغلي. ويقود الطرف الأول خطري بن أعمر بن اعلي ولم تصرح المصادر التي بين يدي بقائد الطرف الثاني وغالب الظن أنه المختار الصغير بن سيدي أحمد بن المختار رئيس فاته.

أما الحلقة الرابعة والأخيرة فوقعت حين انتزعت جيوش الحاج عمر الفوتي منطقة باغنة من أولاد امبارك خلال مواجهات قادها سنْبني وهو قائد فلاني من أبرز شخصيات إفلان كرطة بمالي في منتصف القرن التاسع عشر. قاد سنبني معركتين حاسمتين ضد أولاد امبارك. وتعرف معركتا هذا القائد الفلاني في الحوليات الموريتانية بوقعتي سمبني. كانت الأولى منهما عند تادرت سنة 1857 والثانية عند تِيمْزِينْ سنة 1858.

167

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله على من
لا نبي بعده هذا وانه من محمد بن عثمان بن بسيف الى محمد
بن الحاج ابراهيم خاصة بالسلام التام والاكرام العام اما
بعد الاعلام بان دخلت هذا الحزب من جهة اولاد اعمر
بن هنون لان كبيرهم اليوم والملك ملكهم كما انت تعلم ذالك
وانت دخلت فيه من جهة قومك ولا لوم عليك في ذالك ولا
نقصد ذالك عندك الى الان واليوم ان كان هذا الامر الذي انت
فيه جهادا اقدم الذي بنفسك ان تيسر لك ذالك او من يساويك
ان لم يتيسر يحصل لك مرادك ولا تفعل معك الا ما يرضيك وتحبه
فان كنت تنقم علي دخولي في دنيا عام مجيء الجهاد
فوالله ما فعلت ذالك مرتدا ولا كرها للدين بل عجزا وخوفا
من شماتة الاعداء وان كنت تريد بذالك مطلق اصلاح باغن
فمرتبتك ومرتبة ابيك ظاهر وانا ان لم ازد لك ذالك لم انقصه
ابدا واعلم بان اباك وعد عثمان بن بسيف بهذا الملك واخبره
بذالك انه راه له بشهادة الثقاة والولد بمنزلة الوالد من
جهتك ومن جهة انا وانا الكاتب نشهد على اقرار الفاضل بن العبي
ممن سن بذالك في بقعة من بقاع باغن يسمى كوش ضحوة في
صدر بيته في ملا من المسلمين وقال لعله راى ذالك لا بنه
والحاصل ان بوار واهل سنبور واهل السماء واهل الارض
عليهم سواء عندي وانت عجل عملك تجدني منك وتنال ما تريد
من الامن والفعل بعد ذالك والسلام كما بدا